أَلخَطِيئَةُ وَالاسْتِغْفَارُ فِي السَّرْدِ القُرْآنِيِّ

(دراسة هرمنيوطيقيّة)

أ.م.د. عبّاس صادق عبد الصّاحب

جامعة المثنّى - كلّية التّربية الأساسيّة - قسم اللّغة العربيّة

فحوى البحث

البحث يتناول موضوع الخطيئة والاستغفار في القصص القرآني، وهو موضوع جديد، وقد حاول البحث أن يسلط الضوء عليه وفاقاً لنظرية التاويل، والمتأمل في النص القرآني يجد أن هذا الموضوع حاضر في أغلب القصص. ومشكلة الانبياء الرئيسية مع اقوامهم هي عدم الاستغفار، وقد وجد البحث أن المشكلة لم تكن إلا مشكلة دلالية، مرتبطة بقدرة العقل على استكناه دلالات جديدة تنسجم مع تغيّر الزمن، أو بتوقّف العقل وجموده عن إنتاج دلالات جديدة. ومن ثم يكون الصراع بين محور التجديد الذي يقوده الانبياء، ومحور التوقف الذي تقوده الاقوام التي لم تركن الى الهدى الالهي.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدّمة:

وصلّى الله على محمّـــــــــد وآله الطّيّبين الطاهرين.

بحث جديد يتناول موضوع الخطيئة الّذي طرحته القصص القرآنية، وكانت مشكلة الانبياء مع أقوامهم الإصرار على الخطيئة، وعدم الاستماع إلى نصيحة الأنبياء بالتّوبة والاستغفار، فكان الهلاك مصير الاقـوام الّتي لم تمتثل إلى النّداء الرّبّانيّ.

وقـد تناولنا هـذا المـوضـوع وفـاقـاً لمنهج «نظريّة التّـأويـل» الّـتي تتعامل مع النّصوص المقدّسة على أسـاس من أنّها نصوص رمزيّة، لا يمكن الاكتفاء بالجانب الـظّـاهـري منها، فالنّصوص المقدّسة نصوص عميقة، تطرح دلالات معرفيّة. ومـن هنا وجـدنـا أن الـصّراع كان صراعاً معرفيّاً فكريّاً، ففريق يؤمن بالدّلالات المتحرّكة غير القارّة، وفريق يؤمن بالدّلالات الثّابتة القارّة.

وقـد أفدنا من كتابات بول ريكور الّذي مـزج بين التّأويليّة والسّرديّة. إنّ الإضافة الّتي قدّمها ريكور أنّه أضاف إلى التّاويليّة بُعد السّرد، فعنده أنّ الحياة لا تفهم إلا من خـــلال الـسّرد. وإذا كان هيدجر يرى الزّمن محـدّداً للوجود الإنـسـانيّ، فـإنّ ريكور يـرى أنّ الزّمن لا يكون إنسانيّاً إلا إذا وضع في حبكة سرديّة. فالذّات الإنسانيّة لا تتجلّى لنا إلا من خلال السّرد.

وعلى هذا الأساس تأتي أهمّية السّرد في الخطاب القرآنيّ، من حيث كونه يبني واقعاً إلى جانب الواقع المعاش، من أجل تأويله وفهمه.

في المنهـــــج:

لـــفـــظـــة هـــرمـــنـــيـــوطـــيـــقـــا Hermeneutique مشتقة من اليونانيّة Hermeneia أي فنّ التّأويل[1]. وعند أرسطو التّأويل أن تقول شيئاً ما بخصوص شيء ما، وكلّ كلمة دالّـة هي تأويل[2]. يحـدّد لالانـد في موسوعته الهرمنيوطيقا بأنّها «... تفسير نصوص فلسفيّة أو دينيّة،

(١) ينظر: الفلسفة والتّأويل. نبيهة قاره. دار الطّليعة. بيروت. ط١. ١٩٩٨. ص٥.

(٢) ينظر: الفلسفة والتّأويل. ص٧.

وبنحو خاصّ الكتاب (شرح مقدّس). تقال هذه الكلمة خصوصاً على ماهو رمزيّ»[٣].

ويختلف التّأويل عن التّفسير، فالثّاني وظيفته التّوضيح، أمّا الأوّل فوظيفته تحديد المعنى من وجهة دينيّة أو نفسيّة[٤]. و «... التّأويل بوصفه صرفاً للمعنى الظّاهر إلى المعنى الباطن على نحو يجعل المعنى الباطن منسجماً مع المعنى الظّاهر، تكمن وظيفته في معالجة مستوى معقّد من المعنى...»[٥].

وعلى هذا الأساس تأتي أهمّية السّرد في الخطاب القرآنيّ، فالسّرد وسيلة للكشف عن الحقائق الّتي لا يمكن إدراكها بشكل مباشر، وسيلة للنّفاذ إلى عالم غيبيّ لا يمكن التّعبير عنه إلا عن طريق المجاز، وإلا عن طريق الحكاية.

مادّة «خطأ» المعجميّة:

يقول الفراهيديّ: «خطِئَ الرّجل خِطأ فهو خاطئ. والخطيئة: أرض يخطئها المطر ويصيب غيرها. وأخطأ إذا لم يُصب الصّواب. وخطايا أصلها خطائئ ففرّوا بها إلى يتامى. وكرهوا أن يترك على إحدى الهمزتين. فيكون مثل قولك «جائئ» لأن تلك الهمزة زائدة وهذه أصليّة، ووجدوا لها في الأسماء الصّحيحة نظيراً ففرّوا منها إلى ذلك، وذهبوا به إلى فعالى مثل طاهر «وطاهرة» وطهارى، والواحدة خطيئة. والخطأ: ما لم يتعمّد ولكن يخطأ خطأ وخطّأته تخطئة»[٦].

وأمّا الرّاغب فيقول: «الخطأ العدول عن الجهة وذلك أضرب، أحدها: أن يريد غير ما تَحسُن إرادته فيفعله وهذا هو الخطأ التّامّ المأخوذ به الإنسان، يقال خطِئَ يَخطأُ خطْأً وخِطْأةً قال تعالى:

(٣) موسوعة لالاند الفلسفيّة. أندريه لالاند. تعريب خليل أحمد خليل. منشورات عويدات. بيروت. باريس. ط٢. ٢٠٠١. ١/ ٥٥٥.

(٤) ينظر: عبد القّاهر الجرجانّي في النّقد العربّي الحديث دراسة في إشكاليّة التّأويل. محمّد عبد الرزّاق عبد الغفّار. المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر. بيروت. ط٢. ٢٠٠٢. ص١٨.

(٥) عبد القّاهر الجرجاني في النّقد العربّي. ص١٨-١٩.

(٦) العين. لأبي عبد الرّحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ(١٠٠ -١٧٥هـ). تحقيق: د. مهديّ المخزوميّ ود. إبراهيم السّامرّائيّ. ج٤. مادّة «خطأ». ٢٩٢ -٢٩٣.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٣١] وقال: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [سورة يوسف: ٩١] والثّاني أن يريد ما يَحسُنُ فعلُه ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال أخطأ إخطاءً فهو مخطئٌ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل وهذا المعنيّ بقولهﷺ: «رفع عن امّتي الخطأ والنّسيان» وبقولهﷺ: «من اجتهد فأخطأ فله أجر» ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [سورة النّساء: ٩٢] والثّالث أن يريد ما لا يَحسُن فعلُه ويتّفقَ منه خلافُه، فهذا مخطئٌ في الإرادة ومصيبٌ في الفعل فهو مذموم بقصده وغيرُ محمود على فعله[٧].

«والخطيئة والسّيّئة يتقاربان لكنِ الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه بل يكون القصدُ سبباً لتولّدِ ذلك الفعل منه كمن يرمي صيداً فأصاب إنساناً أو شرِبَ مُسْكراً فجنى جناية في سكره. والسّبب سببان: سبب محظور فعله كشرب المُسْكِر وما يتولّد عنه من الخطأ غير مُتجافٍ عنه، وسببٌ غيرُ محظور كرمي الصّيد، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [سورة النّساء: ١١٢] فالخطيئة ههنا هي الّتي لا تكون عن قصد إلى فعله»[٨].

«والجمع الخطيئات والخطايا وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٥٨] فهي المقصودة إليها والخاطئ هو القاصد للذّنب، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [سورة الحاقّة: ٣٦ -٣٧] وقد يسمّى الذّنب خاطئة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [سورة الحاقّة: ٩] أي الذّنب العظيم وذلك نحو قولهم شعرٌ شاعرٌ. فأمّا مالم يكن مقصوداً فقد ذكرﷺ أنّه مُتجافٍ عنه، وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [سورة البقرة:

(٧) مفردات ألفاظ القرآن. العلامة الرّاغب الأصفهانيّ(٥٠٢هـ). دار الأميرة للطّباعة والنّشر. بيروت. ط١. ٢٠١٠. مادّة «خطأ». ٢١١ -٢١٢.

(٨) مفردات. مادّة «خطأ». ٢١٢.

٥٨] فالمعنى ماتقدّم»[٩].

وأمّا الزّمخشري فيقول: «أخطأ في المسألة وفي الرّأي. وخَطِئَ خَطأً إذا تعمّد الذّنب ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٧][١٠]. ومن المجاز «وخطأت القدرُ بزبدها عند الغليان: قذفت به»[١١].

ويتبيّن ممّا تقدّم أنّ الخطيئة في الأصل تعني العمل غير المقصود، لكنّها تستعمل أيضاً لتشمل العمل المقصود أيضاً؛ وبذلك تكتسب صفة العموميّة بحيث تكون شاملة للذّنب والسّيّئة وغيرهما من الكلمات الّتي تشترك معها في الحقل الدّلاليّ، ومهما يكن منشيء فإنّ الخطيئة تعني صدور الذّنب، أي ظهوره إلى عالم الوجود.

مادّة «غفر» المعجميّة:

يقول الفراهيديّ: «وأصل الغفْر التّغطية»[١٢]. وأمّا الرّاغب فيقول: «الغفر إلباس ما يصونه عن الدّنس ومنه قيل اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ثوبك فإنّه أغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب. وقال: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥] ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، [سورة الحديد: ٢١] ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥]»[١٣]. «والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال وقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [سورة نوح: ١٠]»[١٤].

وأمّا الزّمخشريّ فيقول: «واصبغ ثوبك بالسّواد فإنّه أغفر للوسخ أي أحمل وأستر»[١٥]. «ومن المجاز قول زهير:

أضاعت فلم تُغفَرْ لها غَفلاتُها

فلاقت بياناً عندَ آخرِ مَعْهَدِ

أي لم تغفر السّباع غفلتها عن ولدها

(٩) مفردات. مادّة «خطأ». ٢١٢.

(١٠) أساس البلاغة. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ (ت٥٣٨هـ). دار إحياء التّراث العربيّ. بيروت. ط١. ٢٠٠١. مادّة «خطأ». ١٩٤.

(١١) أساس البلاغة. مادّة «خطأ». ١٩٤.

(١٢) العين. ج٤. مادّة «غفر». ٤٠٧.

(١٣) مفردات. مادّة «غفر». ٥٠٠.

(١٤) مفردات. مادّة «غفر». ٥٠٠.

(١٥) أساس البلاغة. مادّة «غفر». ٥٤٠.

فأكلته»[١٦].

ونستطيع أن نستخلص ممّا تقدّم أنّ «غفر» تعني السّتر والتّغطية والصّيانة والغفلة، أي أنّ مادّة «غفر» المعجميّة تركّز على دلالة الإخفاء أو المحو، فهناك فعل ظهر إلى الوجود، وهناك رغبة بمحو هذا الفعل. وعلى هذا الأساس يكون الاستغفار متضمّناً معنى التّوبة أيضاً؛ لأنّ التّوبة كما يقول ابن منظور: «الرّجوع من الذّنب. وفي الحديث: النّدم توبة. والتّوب مثله. وقال الأخفش: التّوب جمع توبة مثل عزْمة وعزْم. وتاب إلى الله يتوب توباً وتوبة ومتاباً: أناب ورَجَعَ عن المعصية إلى الطّاعة»[١٧].

فالتّوبة الرّجوع، والرّجوع يعني العودة إلى ما قبل الذّنب، والعودة إلى ما قبل الذّنب تعني الرّغبة بمحو الذّنب، وبذلك تلتقي دلالة «غفر» بدلالة «توب»، فكلتا اللّفظتين تؤكّدان على فكرة المحو.

مجاز الإغواء:

يعدّ الشّرّ تحدّياً للدّين وللعدالة الإلهيّة[١٨]. و«... لن يكون على الشّاكّ سوى أن يُشير إلى ما في العالم من شرّ وشقاء»[١٩]. والقرآن الكريم يقدّم تفسيره لقضيّة الشّرّ بقصّة إغواء آدم. قد يكون هذا الموضوع أقرب شيء إلى نظريّة التّحليل النّفسيّ منه إلى نظريّة التّأويل. لكنّي أذهب إلى ما ذهب إليه النّاقد الأرجنتينيّ إمبرت في قوله: «وفي سبر ماهو جنسيّ تعوّد نقّاد الأدب المتخصّصين في التّحليل النّفسيّ أن يغتصبوا نزاهة الأعمال الفنيّة، وما هو أسوأ المعنى. والمحلّلون النّفسيّون ليسوا مقتنعين فيما يبدو من أنّ كاتباً ما، كتب عملاً ما، وفي كلّ حالة فإنّ هذا الكاتب لم يكتب ما يعتقد، وإنّما كتب ما أملاه عليه «شيء» ما من أعماق الكهوف. ويصبح عمل ما أكثر ثراءً ودلالة كلّما أظهر لنا جوانب أكثر من الحالات الدّاخليّة الّتي

(١٦) أساس البلاغة. مادّة «غفر». ٥٤١.
(١٧) لسان العرب. العلّامة أبي الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور الأفريقيّ المصريّ. دار صادر. بيروت. مج١. مادّة «توب». ص٢٣٣.
(١٨) ينظر: فلسفة الإرادة الإنسان الخطّاء. بول ريكور. ترجمة: عدنان نجيب الدّين. المركز الثّقافيّ العربيّ. بيروت. ط٢. ٢٠٠٨. ص٢١٩.
(١٩) الزّمان والأزل. ص٣١٥.

لا يريد المؤلّف نفسه أن يظهرها، أو لا يعرف أنّها موجودة»[٢٠]. ومهما يكن من شيء فنظريّة التّأويل تشتغل على المجالات كلّها، فليس لها حدود تحدّها؛ لأنّ كلّ تأويل -سواء أكان نفسيّاً أم لم يكن- جزء من عملها. يقصّ علينا القرآن قصّة إغواء آدم على النّحو الآتي:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[سورة الأعراف: ١١- ٢٤].

كان يمكن أن أكتفي بعرض قصّة آدم فحسب، لكنّي وجدت أنّ قصّة آدم ترتبط بقصّة إبليس، بل إنّ قصّة إبليس لابدّ منها لتأويل قصّة آدم. إنّ هناك قصّتين صغيرتين متداخلتان، والقصّتان عبارة عن حواريّتين، الأولى بين إبليس والله، والثّانية بين آدم والله.

إنّ إبليس الممتنع عن تنفيذ الأمر الإلهيّ ليس إلا المنع نفسه، والمنع يعني القانون،

(٢٠) مناهج النّقد الأدبيّ. إنريك أندرسون إمبرت. ترجمة: د. الطّاهر أحمد مكيّ. مكتبة الآداب. القاهرة. ط١. ١٩٩١. ص١٣٨.

والقانون لا يُجيز الخرق، وهنا إرادتان إرادة الله الّتي سنّت القانون، وإرادة القانون، والله فوق القانون؛ لذلك يجب أن تبقى إرادة الله، وتنفى إرادة القانون. لقد كان إبليس ينطلق من هذا المنطلق، فالله وحده الّذي يجوز له السّجود، أمّا آدم فلا يستحقّ ذلك، فإبليس محكوم بهوس القانون، أو أنّه قد أغواه القانون، متجاهلاً أنّ من وضع القانون يجوز له نسخه، فإبليس قد عبد القانون، ولم يعبد الله؛ لأنّ العبادة هي الطّاعة، ومن أطاع فقد عبد. ومن هنا قصّة إبليس تصبّ في جوهر الدّين، وجوهر الدّين قائم على النّسخ الإلهيّ للقانون.

لقد كان إبليس ينطلق من موقف يرى أنّ قانون الله لا يمكن له أن يتغيّر، لكن الحقيقة الّتي غابت عنه أنّ القانون الّذي يضعه الله، يقوم الله بنسخه، فليس هناك قانون ثابت وباقٍ إلى الأبد، فالقانون الإلهيّ الثّابت هو قانون التّغيير. كما في القرآن: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[سورة البقرة. ١٠٦]. و ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[سورة الرّعد. ٣٩]. و ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[سورة الرّحمن: ٢٩]. فالله لا يؤمن بالثّبات، والحقيقة الثّابتة الباقية الّتي لا تتغيّر هي أنّ الله هو الباقي وحده، أمّا سواه فيجب أن يكون على عكس ذلك. كما في القرآن: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[سورة القصص: ٨٨].

ومن هنا ستأتي محنّة آدم، فالخطاب الإلهيّ الصّادر إلى آدم يحذّره أن لا يحذو حذو إبليس ويقف عند الثّبات والدّلالة الحرفيّة الظّاهريّة، وهذا هو مجاز الشّجرة، فالشّجرة نبات ثابت، ترمز إلى ظاهر الشّيء -وسيظهر رمز الشّجرة مرّة أخرى في قصّة يونس -. وقد حملت الشّجرة «.. الملامح الأسطوريّة والدّلالات المتّصلة بالسّتر والتّغييب، ولذا لم يأتِ استثمار الشّجرة نصّيّاً من فراغ»[٢١]؛ لذلك حين أكل منها آدم بعد أن أغراه إبليس بدت له سوأته، تعبيراً عن بقائه على مستوى

(٢١) مرايا التّأويل قراءات في التّراث السّردي. د. معجب العدوانيّ. النّادي الأدبيّ بالرّياض. المركز الثّقافيّ العربيّ. بيروت. الدّار البيضاء. ط١. ٢٠١٠. ص١٤٦.

السّطح، من دون النّفاذ إلى أبعد من ذلك.

لقد حذا آدم حذو إبليس، فبدت سوأته، أو عورته، «فما ينقله رمز آدم أوّلاً وبشكل أساسيّ هذا التّأكيد أنّ الإنسان، إن لم يكن الأصل المطلق، فهو نقطة انبثاق الشّرّ في العالم. فلقد دخلت الخطيئة عن طريق إنسان واحد إلى العالم. هذا وإنّ الخطيئة ليست هي العالم، إنّها تدخل إلى العالم»[٢٢].

لكن لماذا ظهر الوعي الجنسيّ عندما وقف آدم على مستوى السّطح؟. إنّ إدخال الوعي الجنسيّ في هذه القصّة تأكيد على أنّ آدم حين حذا حذو إبليس لا يختلف عن أيّ مخلوق آخر يفتقر إلى التّكريم الّذي حظي به آدم، حين سجدت الملائكة له-وسيظهر الرّمز الجنسيّ مرّة أخرى في قصّتي لوط ويوسف -؛ لذلك أدرك آدم خطأه، وخطؤه هو أنّه تشبّه بإبليس الّذي وقف عند الدّلالة الحرفيّة، وكان من الواجب عليه أن يتشبّه بالله؛ ليحصل على منصب «الرّئاسة العليا» كما عبّر عن ذلك الفيلسوف الألمانيّ كانت[٢٣]؛ لأنّه خُلِق لذلك، خُلِق آدم ليكون التّمثيل الحسّيّ لألوهيّة لا تؤمن بالثّبات، لألوهيّة تَعبُر من دلالة إلى اخرى بلا توقّف.

وقد أدرك آدم خطأه فاستغفر ربّه، أي أدرك أنّه لم يُخلَق ليحذو حذو إبليس، وإنّما خُلِق ليكون خليفة الله. خُلِق آدم لتكون له القدرة على الفهم والإدراك والعبور من دلالة إلى أخرى. لقد فهم آدم بعد تجربته هذه النّاموس الأعظم للدّين، ناموس التّغيير، ناموس النّسخ، ناموس المحو والإثبات، ناموس الدّلالة المتحرّكة غير القارّة.

من أجل ذلك ستبدأ محنة بني آدم الّذين سيكونون فريقين: فريقاً يؤمن بالثّبات وبالدّلالة الظّاهريّة، وهؤلاء هم عبدة القانون أو الأعراف أو الأنظمة أو إبليس، وفريقاً لا يؤمن بذلك، بل يؤمن بالتّغيير وبالدّلالة المتحرّكة وبالنّسخ

(٢٢) صراع التّأويلات دراسات هيرمينوطيقيّة. ترجمة: د. منذر عيّاشيّ ود. جورج زيناتيّ. دار الكتاب الجديد المتّحدة. بيروت. ط١. ٢٠٠٥. ص٣٢٢.

(٢٣) ينظر: فلسفة كانت التّربويّة. د. طيبة ماهر وزادة. دار الهادي. بيروت. ط١. ٢٠٠١. ص١٩٣.

الإلهيّ المستمرّ للقانون، وهؤلاء هم عبدة الله.

مجاز القربان:

إذا كانت تجربة آدم تعود إلى ما قبل الزّمان والمكان والحدث، تجربة في عالم غيبيّ محض، أو في عالم افتراضيّ، صنعته مجازيّة الكتب المقدّسة، فإنّ تجربة ابني آدم أوّل تجربة على مستوى التّاريخ البشريّ، أو الوجود البشريّ على سطح الأرض، بعد أن هبط آدم من جنّة عالية إلى أرض سافلة. يقصّ علينا القرآن نبأ ابني آدم في سورة المائدة (الآيات: ٢٧ -٢٨ -٢٩- ٣٠ -٣١).

إذ لم يقصص علينا سبب الخلاف بين الأخوين، ولم يذكر مكان وزمان الحدث، ولم يذكر ما القربان الّذي قدّمه كلّ واحد من الأخوين؟. ولِمَ قاما بتقديم القربانين إلى الإله؟. فالنّص القرآنيّ يميل إلى الاقتضاب، وهذه سمة مميّزة له، لكن هذا الاقتضاب يكون محمّلاً بالمعاني. وعدم التّفصيل في السّرد القرآنيّ لا يمنع من تأويل قصّة ابني آدم في ضوء نظريّة التّأويل.

لم يكن الابن الثّاني الّذي قام بقتل أخيه كافراً بالله، بل كان مؤمناً، والدّليل على ذلك أنّه قدّم قرباناً لربّه، ولا يَخفى أنّ القربان وسيلة للتّقرّب من الرّبّ. فالقربان «... يحمل في رمزيّته التّضرّع»[٢٤]. لكن قربان قابيل لم يُتقبّل، على عكس قربان هابيل.

المحيّر في هذه القصّة هو أنّه كيف طُرِح خيارُ القتل في زمان يُفترض فيه أن يكون زمان براءة؟. وعلى الرّغم من الاقتضاب في السّرد القرآنيّ، وتركه التّفصيل، فإنّه يمكن أن نفهم كيف طُرِح خيارُ القتل، فكما أنّ قابيل تعلّم من الغراب كيف يدفن أخاه، فكذلك تعلّم من هذا الطّير القتل أيضاً. وهنا نرى أنّ الغراب أضحى معلّماً لابن آدم، فبعد أن كان آدم معلّماً للملائكة، أضحى ابنه متعلّماً من طير. ولا يَخفى أنّ من يتعلّم من طير، كيف له أن يُدرك الأسرار الإلهيّة. وعلى هذا الأساس لم يتمّ قبول القربان الّذي قدّمه قابيل؛ لأنّه لا يستحقّ هذا

(٢٤) هيكليّة الرّمز في الوجود. فيصل مفلح. دار الينابيع. دمشق. ط١. ٢٠٠٨. ص٢٣.

التّكريم الإلهيّ.

إنّ هابيل ينتمي إلى آدم ما قبل المعصية، فلم يقع في خطأ آدم، ولم يقف عند الدّلالة الظّاهريّة، وهذا واضح من عدم اشتراكه في جريمة القتل، وتَرَك نفسه في تساميها وعلوّها، فهو قد كان منشغلاً بما وراء هذا الحدث الظّاهريّ، كان منشغلاً بالدّلالات غير المنتهية الّتي تتبدّى أمامه؛ لذلك تُقبّل قربانه؛ لأنّه يستحق هذا التّكريم الإلهيّ. وهابيل هنا عندما قلت إنّه ينتمي إلى آدم ما قبل المعصية، لم يجمع بين النّقيضين، لم يجمع بين الطّاعة والمعصية، كما جمعها آدم، بل جمع الطّاعة وحدها، فهو قد فاق أباه شأواً بعيداً.

أمّا قابيل فينتمي إلى آدم ما بعد المعصية، فآدم قد تسافل عندما أصغى إلى إبليس الّذي جعله يقف عند ظاهر الشّيء. وهنا الابن يسلك سلوك ابيه، فيقع في معصية يندى لها جبين الإنسان، فهو قد هبط من منزلة أبيه إلى درجة أنّه لم يَكترث به الرّب، فلا تقبّل قربانه، كما تقبّل قربان أخيه، ولا تقبّل ندمه كما تقبّل توبة أبيه.

إنّ صراع الأخوين كان صراعاً بين مؤمنين بالله، وربّما كان سبب الصّراع هو في كيفيّة الإيمان، فليس الإيمان بالله هو إيمان واحد عند البشر أجمع، كما أنّ الله لا يريد أيّ إيمان، بل لا يريد من الإنسان إلا إيماناً خاصّاً، يتناسب مع التّكريم الإلهيّ له. ربّما رأى قابيل الواقف عند السّطح، والمحافظ على الشّريعة الظّاهريّة، رأياً مخالفاً من هابيل في فهمه للأشياء، فاستغرب ذلك، وظنّ أنّ أخاه قد خرج عن حكم الله.

إنّ رمزيّة القتل تعني الإخفاء المتعمّد، فهذا الفهم المتحرّك للدّلالة، انطلاقاً من رؤيا بعيدة، تغور في أعماق لا يمكن أن يدركها كلّ أحد، هو الّذي أراده قابيل من إخفائه للوجوه الكثيرة لدين الله، ليُترك الدّين بوجه واحد، وهي محاولة لغلق أيّ تأويل ممكن، وأيّة فسحة للتّعامل مع الدّين بحرّيّة يسمح بها الإله.

وعندما يتمّ غلق باب التّأويل، ورفض النّسخ في الشّريعة، لا يبقى من الشّريعة إلا الوجه المظلم، الّذي يجعل حياة الإنسان محنة كبيرة. ولعلّ هذا ما

أراده القرآن من رمز الغراب في قصّة ابني آدم، فحياة الإنسان الّتي ينتصر فيها قابيل، ويُقتل فيها هابيل، ستكون خراباً وموتاً، ستكون حياة بوجه واحد، هو وجه الشّؤم، وبلون واحد هو لون السّواد.

لقد تقبّل الله توبة آدم بعد صدور المعصية، فعاد إلى حال صفائه؛ لأنّ ذنب آدم كان ذنباً عرضيّاً، فلم يكن آدم سطحيّاً أو ذا عقل متحجّر، كما هو الحال مع قابيل. فلم يكن قابيل مستنيراً بعقل يسمح له أن يكتشف الدّلالات غير المرئيّة؛ ولم يكن ندمه لأنّه أدرك ما لم يكن قد أدركه من ذي قبل، بل كان ندمه؛ لأنّه تسافل إلى درجة أضحى فيها الغراب الأسود معلّمه، فهو ابن آدم الّذي سجدت له الملائكة، وكان يظنّ أنّ كلّ من ينتمي إلى آدم يستحقّ هذا التّكريم. وهنا أدرك قابيل أنّه ينتمي إلى آدم من حيث الجسد، ولا ينتمي إلى آدم من حيث الفكر والرّوح، فقابيل أقرب إلى العالم الحيوانيّ منه إلى عالم آدم.

سنّ قابيل سنّة بقيت ثابتة في الأجيال القادمة الّتي تلته، فكان القتل هو شعار ورثته، وكان الجمود والتّحجّر هما الشّريعة الّتي آمنوا بها؛ فلا غرابة أن تكون هذه الأجيال المتعاقبة بعيدة عن الاهتداء الرّبّانيّ، فكان أن عبدوا الكواكب والنّجوم والحجارة والشّجر والحيوان وغير ذلك.

مجاز الطّوفان:

انتصر ظاهريّاً الجمود والتّحجّر، والفهم الحرفيّ للدّين، على الرّؤيا العميقة الّتي تكتشف غير المرئيّ، تلك الرّؤيا العميقة الّتي كان يمكن لها أن تجعل حياة الإنسان سعادة خالصة، فكان أن امتلأت الأرض ببشر لا يسمحون للآخر أن يخالفهم في شريعتهم، وظنّوا أنّ دين الله وجه واحد، ولم يكن نصيب الأنبياء وأتباعهم إلا القتل والتّنكيل والإقصاء. فلم يكن للإله خيار إلا أن يزيح هذا الفهم السّطحيّ من على سطح الأرض، ويغسل الأرض من خطايا الإنسان. والمتأمّل في القصص القرآنيّ يجد أنّ هناك تكراراً وإلحاحاً على هذا الموضوع، أقصد موضوع الخطيئة، وإهلاك الأقوام الّتي لم تذعن للإرادة الإلهيّة، ولم تستغفر ربّها.

الأمر يجعلنا نذهب إلى أنّ الخطيئة قد امست قدر الإنسان، الّذي لا ينفكّ عنه، إلا بالموت والهلاك. «ومن هنا يضفي التّكرار على الحركة الزّمنيّة للسّرد ذلك النّوع من الضّرورة الّذي ندعوه بالقدر أو المصير. ويقرأ التّكرار السّرديّ الجريان الزّمنيّ بوصفه تاريخيّة أصيلة... وتحصل هذه التّاريخيّة حين يكون التّكرار أكثر من مجرّد صورة لفهم السّرد، أي حين يندمج التّكرار بفعل القصّ نفسه»[٢٥]. الأمر الّذي جعل ريكور يقول: «يُبنى القدر في السّرد، فالقدر تُعاد روايته»[٢٦]. يقصّ علينا القرآن حادثة الطّوفان على النّحو الآتي:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ

(٢٥) الوجود والزّمان. ص١٥١ -١٥٢.
(٢٦) م. ن. ص١٥٢.

أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[سورة هود: ٣٦-٤٨].

إنّ حادثة الطّوفان كما يصوّرها السّرد القرآنيّ حادثة عالميّة، فهي شاملة للأرض جميعاً، وليس هناك أحد كان يمكن له أن يُستثنى من ذلك، فهي أشبه ما تكون بقيامة أرضيّة، فالنّاس فريقان إمّا هالك معذّب، وإمّا ناجٍ منعّم. وواضح من خلال القصّة أنّ أتباع نوح كانوا قلّة قليلة، أمّا الآخرون فكانوا الكثرة الكاثرة، وقد نجت القلّة، وهلكت الكثرة.

إنّ مجاز السّفينة هنا يعني قدرة نوح على استكناه الدّلالات، والعبور من دلالة إلى أخرى، فهو ذو عقل منفتح غير متحجّر، كما تحجّر الآخرون الّذين راحوا يسخرون منه ومن أتباعه. والسّفينة هي القرطاس الّذي كان يقرأ فيه نوح الدّلالات غير المنتهية، فهي ألواح، والألواح قد كتب فيها أفقاً رحباً، ففيها من كلّ شيء زوجين، كناية عن التّناسل الدّلاليّ الّذي لا ينفد، والّذي يبقى معيناً للأجيال القادمة.

ومجازيّة التّنّور مرتبطة أيضاً بالسّفينة، فالسّفينة القرطاس الّذي كان يقرأ فيه نوح؛ لذلك تفجّرت الدّلالات غير المنتهية، فأغرقت الأرض بهذا التّجديد، و عمق الرؤية، فلم يكن للدّلالة الظّاهريّة من بدّ إلا أن تغرق في طوفان من دلالات لا حصر لها، وتتلاشى فلا يكون لها وجود. والطّوفان يعادل الانحلال، والانحلال يستتبع الولادة الجديدة[٢٧].

وكان نداء نوح ربّه محاولة لإنقاذ هذه الدّلالة الظّاهريّة، بعد أن تشذّبت ممّا علق بها من آثار القرون، وجعلها تعيش جنباً إلى جنب مع الدّلالات الأخرى، وهذا ما نجده في مجازيّة الابن هنا، الّذي كان يرى الجبل أبعد نقطة في الوجود، لكنّ الإرادة الإلهيّة قضت أن لا يكون لهذه الدّلالة من وجود، ولا يمكن لها أن تعيش مع الدّلالات الأخرى؛ لأنّ هذه الدّلالة الظّاهريّة تفسد على الإنسان حياته، فأدرك نوح خطأه، واستغفر ربّه، الّذي

(٢٧) ينظر: المقدّس والمدنّس. مرسيا إليا د. ترجمة: عبد الهادي عبّاس المحاميّ. دار دمشق. سوريا. ١٩٨٨. ص٩٨.

كان يرى أبعد من رؤيته.

لقد كان نوح مصدراً لجميع هذه الدّلالات، وظنّ أنّ هذه الدّلالة تنتمي إليه أيضاً، ويمكن ان توضع في سفينته أو قرطاسه، فلم يأذن له الرّب، وأعلمه أنّ هذه الدّلالة غير صالحة، وهي دلالة فاسدة، لا يجوز لها هذا التّكريم الإلهيّ، فهذه الدّلالة لا تنتمي إلى نوح، وهو ليس مصدرها، وإنّما مصدرها العقل المتحجّر الّذي عاث في الأرض فساداً.

وعندما انتصرت الدّلالات المتجدّدة، عاش النّاس في سلام وبركات، فالسّلام لأنّ هناك حرّيّة في استكناه الدّلالات، وهناك تقبّل لهذه الدّلالات، الّتي يمكن لها أن تتعايش جنباً إلى جنب بلا ضغينة أو أحقاد، والبركات لأنّ الإنسان قد انتهت محنته، وسيعيش في سعادة وهناء.

لكن هذا لا يعني أنّ الفهم السّطحيّ سيندثر إلى الأبد، أو أنّه قد مات بشكل نهائيّ، وما زال لهذا الفهم من جولات وجولات ينتصر فيها ظاهريّاً على الفهم العميق. وكلّ دلالة تستقرّ وتثبت ويكون لها أتباع ينافحون عنها، تكون خطراً على الإنسان، و هذا هو منبع الشّرّ، أيّ أنّ الرّكود هو منبع الشّرّ، فالدّلالة الّتي تصلح الآن، لا تصلح للآن الّذي يأتي بعده. فكلّ آن من الآنات يحتاج إلى دلالة أخرى تناسبه، ويمكن تشبيه ذلك بالماء، فكلّما كان الماء جارياً، ومتغيّراً، كان نافعاً، وصالحاً للشّرب، وكلّما ركد، ولم يتغيّر، كان مضرّاً، وغير صالح للشّرب. ومن هنا يجب أن تكون قيمة الدّلالة وفاقاً لمنزلتها في آنها فحسب؛ لأنّها قد لا تصلح للآن الآخر.

مجاز النّاقة:

عادت الدّلالة الظّاهريّة إلى الوجود بعد موتها بسبب الطّوفان، فقد أحياها أقوام لم يمتلكوا بصيرة، تسمح لهم أن يكتشفوا الأسرار الرّبّانيّة، ثمّ وصل الأمر إلى أن تركوا عبادة الله الواحد، فعبدوا الأصنام المتعدّدة، وهي حجارة يصنعها الإنسان بيده، ثم يقوم بعبادتها، حتى أمست عبادة الأصنام إرثاً، ودين الآباء والأجداد، وهو الدّين الّذي لا يُسمح لأحد بالنّيل منه، أو مساسه. وعبادة الأصنام تمثّل «... مستوىً تطوريّاً

من مستويات الدّين، لا تطبّق فيه على الله سوى أكثر الرّموز بعداً عن التّطابق والملاءمة»[٢٨]. وقد بعث الله النّبيّين؛ ينهون النّاس عن عبادتها، ويأمرونهم بالاستغفار، والعودة إلى دين الله الواحد، ولكنّهم لم ينتهوا، ولم يستغفروا، ولم يعودوا إلى دين الله الواحد، فما كان أمام الله إلا أن يعذّبهم بألوان العذاب، حتّى وصل الأمر إلى قوم صالح، فجعل لهم النّاقة آية. يقصّ علينا القرآن قصّة ناقة صالح على النّحو الآتي:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[هود: ٦١ -٦٨].

إنّ الإرث الّذي ورثه قوم صالح عن آبائهم هو عبادة الأصنام، وواضح من خلال المحاورة بين صالح وقومه، أنّهم متمسكّون بهذا الإرث، ويؤمنون بنجاعة هذا الإرث، ويشكّكون بعقل صالح. ومجاز الصّنم يدلّ على الجمود والتّحجّر، وعدم إعمال العقل وتقبّل الإرث على علّاته بلا أدنى نقاش. فالصّنم تمثيل حسّيّ لفكر متخلّف رجعيّ لا يؤمن بالتّغيير، فهم يتّبعون الدّلالة الحرفيّة الظّاهريّة، وهي تُفضي بهم إلى دروب مسدودة، لا قدرة لها على طرح الجديد، وإنتاج البدائل الّتي تمدّ حياة الإنسان بنسغ جديد.

إنّ قصّة ثمود قصّة عربيّة بامتياز،

(٢٨) الزّمان والأزل. ص٢٢٣.

فلم ترد في التّوراة كما ينقل الطّبريّ قائلاً: «يزعمون (أي اليهود) أنّه لا ذكر لعاد وثمود ولا لهود وصالح في التّوراة، وأمرهم عند العرب في الشّهرة في الجاهليّة والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه»[٢٩]. وهذا يعني أنّ «قصّة صالح وثمود قصّة عربيّة، يظهر من فضائها أنّها جرت على رمال الصّحراء، ويظهر من أفعال شخصيّاتها أنّهم بدو رعاة ماشية»[٣٠]. لذلك كانت آية صالح لقومه ثمود النّاقة، «ونحن نعلم من خلال مدوّنات الثّموديّين ورسومهم الّتي وصلت إلينا أنّ اقتصاد ثمود كان فعلاً قائماً على الإبل، ووجدنا في بعض النّقوش أنّهم يطلقون على الجمل تعبير «أقدس»؛ ولذلك فقد كانت النّاقة حيوانهم المحرّم والمقدّس. وينصّ كثير من روايات الإخباريّين وجامعي قصص الأنبياء على أن قوم ثمود هم الّذين اختاروا النّاقة آية لامتحان النّبيّ صالح بينهم؛ لأنّهم كانوا يحيطونها بالإجلال والتّقديس»[٣١].

والبعد المجازيّ للنّاقة هنا هي أنّها دلالة متحرّكة، والنّاقة حيوان يقطع الفيافي، فهي كالقلم الّذي يقوم بكتابة الدّلالات المتعدّدة المتجدّدة، والفيافي كالقرطاس الّذي يكتب عليه القلم مايريد. فصالح انتقل من عالم الجماد وتجاوز عالم النّبات الّذي لا يختلف كثيراً عن عالم الجماد، وانتقل إلى عالم الحيوان الّذي يمتاز بالحركة؛ كناية عن التّخطي، والاجتياز من حالة إلى أخرى.

وقد طلب صالح من قومه أن يتركوا ناقته أو دلالته المتحرّكة، تتعايش جنباً إلى جنب مع دلالاتهم الظّاهريّة، وكان يمكن لهذه الدّلالة الجديدة، أن تمدّ الحياة بنسغ جديد، لكنّ القوم لم يأذنوا لهذه الدّلالة

(٢٩) تاريخ الطّبري -تاريخ الرّسل والملوك. محمّد بن جرير الطّبريّ. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر. ط٢. ١/ ١٦٢.

(٣٠) مملكة الباري -السّرد في قصص الأنبياء. محمّد كريم الكوّاز. الانتشار العربيّ. بيروت. لبنان. ط١. ٢٠٠٨. ص١٨٩.

(٣١) العرب والغصن الذّهبيّ إعادة بناء الأسطورة العربيّة. ياروسلاف ستيتكيفيتش. ترجمة: سعيد الغانميّ. المركز الثّقافيّ العربيّ. الدّار البيضاء-المغرب. بيروت -لبنان. ط١. ٢٠٠٥. ص١٨.

الجديدة ان تعيش إلى جوار دلالاتهم التّي استنفدت، فلم يأذنوا لها، وهنا طُرِح خيار القتل، وهو خيار ورثوه منذ عهد قابيل، محاولة لطمس ايّ فكر تجديديّ.

وقد ظنّوا أنّهم بفعلهم هذا يمكن أن يتخلّصوا منها، فلا يكون لها تأثير على حياتهم، لكنّهم إنّما قتلوا دلالاتهم الّتي لم تبقَ لها القدرة على أن تمتدّ بحياتها أكثر من ذلك. فلم يأذن الله أن يمدّ هذه الدّلالات بالحياة أكثر من ثلاثة أيّام، وهذه المهلة إنّما أعطيت لهم محاولة لمراجعة أنفسهم؛ وليستغفروا من خطيئتهم، لكنّ المهلة انقضت من غير أن تكون هناك مراجعة للنّفس، ومن غير أن يكون هناك استغفار.

ولم يكن أمام الله إلا أن يهلكهم، والبعد المجازيّ للهلاك هو أنّه تخطّي الزّمان لدلالات مستهلكة، لا قدرة لها أن تأتي بالجديد، وبما ينفع النّاس، ولا تمثّل التّكريم الإلهيّ الّذي منحه الله الإنسان. والهلاك محو اضطراريّ، عندما يصل الإنسان إلى درجة لا يسمح بها أن يتغيّر، وعندما يقف أمام أيّ تيّار تجديديّ، يريد أن يعيد الأمل والإشراق إلى الحياة.

فالوقوف أمام السّنّة الإلهيّة وهي سنّة التّغيير والتّجديد، يعني أنّ الإنسان لا يفقه القانون الإلهيّ السّاريّ في كلّ شيء، وسيكون الإنسان هو الخاسر.

فلم يكن أمام الله إلا أن يُهلك ثموداً، الّذين تحجّروا، بل أصبحوا أسوأ حالاً من الحجارة، لأنّ الحجارة أضحت عندهم إلهاً يُعبد، فالحجارة نالت التّكريم والتّقديس، لكنّهم بفعالهم هذه نالوا الإهانة والطّرد من رحمة الله الواسعة. ومن ينعم النّظر يجد أنّ ثموداً، تردّوا في عين الله إلى درجة أن جعل آيتهم النّاقة، أيّ أنّ الله فضّل هذا الحيوان على هؤلاء، وأمرهم أن يكونوا حماة لها، فقد سخّرهم لها، بل نزلت اللّعنة الإلهيّة بهم عندما عقروها. ولو كان لهم قيمة عند الله ما فُعِل بهم هذا، فالله سخّر النّاقة للإنسان، والإنسان يعقر النّاقة، ويأكلها، ولا تثريب له على ذلك. بل إنّ العرب كانوا يحكمون على النّاقة بالموت إذا مات صاحبها، فيتركونها بلا طعام ولا شراب[٣٢]. وذلك عندما يكون الإنسان

(٣٢) ينظر: عبقريّة العربيّة في رؤية الإنسان والحيوان والسّماء والكواكب. د -لطفي

ذا قيمة، لكنّه عندما يُسلب القيمة، يفقد هذا التّكريم، فيكون أسوأ حالاً من جميع ما خلق الله.

مجاز المثل:

ظهر الوعي الجنسيّ عند الإنسان أوّل مرّة في قصّة إغواء آدم، والسّؤال لماذا كان الله يصرّ أن يكون آدم وزوجه في عالم من الطّهارة المحض، عالم لا تسوده أيّة علاقة جنسيّة؟. ربّما كان آدم في أرض مقدّسة، لا تسمح له أن يمارس فيها هذا الفعل الّذي يشير من بين دلالاته إلى حيوانيّة الإنسان، فآدم المكرّم الّذي سجدت له الملائكة أحبّ خلق الله إليه، وأرفعها منزلاً، كان يريد منه الله أن يبقى إلى وقت غير معلوم كائناً متعالياً على الغرائز الحيوانيّة، الّتي قد تقلّل من المكانة العالية الّتي منح إيّاها، لكنّ آدم لم يترك الأمور تجري كما اراد الله، وظهر الوعي الجنسيّ عنده مبكّراً، فأخرجه الله من هذه الأرض المقدّسة، الّتي كان فيها، والّتي لا يجوز أن يقع فيها فعل جنسيّ؛ لأنّها أرض مطهّرة، إلى أرض أخرى، يجوز له أن يفعل فيها ما يشاء.

ومهما يكن من شيء -على الرّغم من حيوانيّة الفعل الجنسيّ، ومجازيّته الّتي تدلّ على الوقوف عند السّطح الحسّيّ من الأشياء، من دون النّفاذ إلى الأعماق-فإنّ الفعل الجنسيّ أمر غريزيّ طبيعيّ، يُشير إلى الطّبيعة الإنسانيّة الّتي جمعت بين الأضداد، في وحدة عجيبة، فالإنسان يمتلك عقلاً يدفعه أن يكون أعلى شأناً من الملائكة، وجسداً يدفعه أن يكون أقلّ شأناً من البهائم.

وقد تردّى الإنسان كثيراً؛ لأنّه سمع نداء جسده، ولم يسمع نداء عقله، فظهر وعي جنسيّ غير طبيعيّ، وعي جنسيّ بالجنس المماثل، وليس بالجنس المخالف، وقد ظهر هذا الوعي أوّل مرّة في قوم لوط. يقصّ علينا القرآن قصّة قوم لوط على النّحو الآتي:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ

عبد البديع. مكتبة لبنان ناشرون. الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر -لونجمان. ط١. ١٩٩٧. ص١٨٤.

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٨-٣٥].

إنّ الشّجرة الّتي أكل منها آدم هي الّتي جعلته يكتشف غريزته الجنسيّة الطّبيعيّة، والسّؤال هنا كيف اكتشف قوم لوط هذا الوعي الجنسيّ غير الطّبيعيّ؟. لم يقصّ علينا القرآن سبب ذلك لاقتضابه، لكنّ الأمر الواضح هو أنّ التّسافل عن المنزلة السّامية، يجعل الإنسان يخرج عن حالته الطّبيعيّة، فمجاز المثل هنا يدلّ على تحوّل الإنسان إلى مخلوق آخر، لا يُشبه شيئاً ممّا خلق الله، مخلوق مشوّه يأنف منه كلّ شيء.

كما أنّ دلالاتهم الّتي تبنّوها دلالات متكثّرة بالعدد، متطابقة بالمضمون؛ لذلك كانوا في أقصى درجات الجمود والتّحجّر، وكلّ واحد منهم نسخة مطابقة من الشّخص الآخر. وكان قوم لوط في أعلى درجات الابتهاج؛ لأنّهم وقفوا عند السّطح الحسّيّ من الأشياء، وتوهّموا أنّ الوقوف عند الجسد، هو الّذي يوصلهم إلى السّعادة الكبرى، وتجاهلوا أنّ هناك منافذ عميقة أفضل وأجمل.

فلا غرابة أن لا يطرح خيار الاستغفار، ليعودوا إلى دين الله؛ لأنّ هؤلاء لا يمكن لهم أن يبقوا على قيد الحياة، ولا يمكن أن تشملهم الرّحمة الإلهيّة، وكلّ الأنبياء قد طرحوا خيار الاستغفار لقومهم إلا لوطاً؛ لأنّه وجدهم ليسوا أهلاً لذلك، حتّى إن كان ذلك على مستوى الألفاظ فحسب،

ومن دون أن تكون هناك نيّة حقيقيّة من الله بالإجابة.

لقد تسافل قوم لوط إلى الحدّ الّذي جعلهم يأتون المنكر علانية، ويقطعون الطّريق؛ ليعبثوا بخلق الله. لقد كانت جريمتهم أعظم من جرائم الأقوام الأخر، الّذين عبدوا الأصنام، فعبدة الأصنام يمكن لهم ان يستغفروا، ويعودوا إلى دين الله الحقّ، لكنّ هؤلاء لم يجزْ بحقّهم أن يستغفروا؛ لأنّ الله لا يريد أن يمحو خطيئتهم؛ لتبقى تلك الخطيئة باقية على مرّ الزّمان، يبصرها كلّ أحد، يمرّ على ديارهم.

إنّ مجاز قطع الطّريق يدلّ على أنّ الدّلالة الظّاهريّة، ما كان باستطاعتها أن تواصل الطّريق حتّى منتهاه، أو تكتشف طرقاً أخر جديدة، فهي كالفقاعة الّتي ما تلبث أن تختفي، وسط تيّار الماء الجارف. وهذا هو مجاز المثل هنا، فالدّلالة لا تستطيع أن تلد الدّلالة، حتّى وإن كانت مشوّهة، فهي تقتل نفسها بنفسها. ولكي تنتج دلالة جديدة لا بدّ من أن يكون هناك تلاقح بين دلالات مختلفة، أمّا إذا كانت الدّلالات كلّها تحمل المضمون عينه، فلا يمكن حينئذٍ أن تخلق دلالة جديدة، وهذا هو الموت، ولكن ليس موت الجسد فحسب؛ وإنّما موت الفكر والرّوح أيضاً.

مجاز الإصلاح:

كلّ نبيّ كان هدفه الإصلاح، لكنّ شعيباً جعل هذا الهدف شعاراً له، والإصلاح يعني أن يكون هناك فساد، والفساد الّذي عمّ مدين يختلف عن الفساد في الأقوام الأخر، فهو فساد من نوع آخر. يقصّ علينا القرآن قصّة مدين على النّحو الآتي:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ

فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾[سورة هود: ٨٤-٩٥].

لم يكن هناك تركيز كبير في السّرد القرآنيّ في قصّة مدين على عبادة الأصنام، وإنّما كان هناك تركيز على إنقاص المكيال والميزان، فعبادة الأصنام أضحت عبادة مألوفة، في الأقوام كلّها؛ لذلك لم يكن هناك تركيز على العبادة الوثنيّة، وكان التّركيز على هذه الخطيئة الكبرى، وهي خطيئة إنقاص المكيال والميزان، وكانت المشكلة الّتي تزيد من عظمة هذا الذّنب أنّ أهل مدين، لم يكن بهم حاجة، لارتكاب هذا الذّنب، فهم في نعمة، وإنّما يضطرّ إلى هذا الفعل غير المرغوب فيه، من كان يشكو الفقر والحرمان.

إنّ مجاز إنقاص المكيال والميزان على الرّغم من الغنى، يعني أنّهم لم يسمحوا للدّلالات أن تنمو نموّاً طبيعيّاً، حتّى تصل إلى الحدّ الّذي تصبح به قادرة على إصلاح حياة النّاس، وعلى الرّغم من أنّهم كانوا يمتلكون المؤهّلات الّتي تسمح لهم أن ينتجوا دلالات صالحة، إلا أنّهم كانوا يتعمّدون إفسادها، لئلا ينتفع بها النّاس، فيعيشوا في هناءة وسرّاء.

ومن هنا طرح شعيب موضوع الإصلاح؛ لأنّ الضّدّ يستدعي ضدّه، فأهل مدين كانوا قوماً مفسدين، لكنّ شعيباً واجههم بمشروع الإصلاح، وحذّرهم أن يمسّهم ما مسّ الأقوام السّابقين من أنواع العذاب، عندما صدفوا عن أمر الله، ولم يراجعوا أنفسهم أو يستغفروا. لقد كان شعيب حريصاً أن يهتدي قومه؛ لأنّ قومه كانوا يمتلكون ما يجعلهم صالحين؛ لذلك طلب منهم الاستغفار.

لكنّهم لم يستجيبوا له، وراحوا يواجهونه بالقوّة، ويقلّلون من شأنه، على الرّغم من أنّهم يدركون تمام الإدراك رجاحة عقله، فلم يكن أمام الله إلا أن يشملهم بعقوبته؛ لأنّهم توقّفوا عند دلالاتهم المستهلكة، الّتي عفا عليها الزّمان؛ ولأنّهم وقفوا عند الظّاهر الحسّي، ولم يرتفعوا بفكرهم وروحهم نحو مديات سامية. أراد شعيب أن يساعد قومه على إصلاح دلالاتهم، ويجعلها تنو نموّاً طبيعيّاً، حتّى تصل إلى مدى يمكن الانتفاع منها، وتكون في خدمة الإنسان، وتفتح أفق بصره وبصيرته؛ ليرى ما لم يكن يراه من ذي قبل. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ التّوبة الّتي أرادها شعيب لقومه توبة ترتكز على المعرفة لا على مجرّد الإرادة[٣٣]، توبة تعيد الإنسان إلى معناه الّذي انفصل عنه، والإنسان هو الكائن الوحيد الّذي يبحث عن المعنى[٣٤].

(٣٣) ينظر: الله والإنسان إشكاليّة العلاقة وأزمة الوجدان. أحمد القبّانجيّ. منشورات الجمل. بيروت. بغداد. ط١. ٢٠٠٩. ص١٩٦.

(٣٤) ينظر: تاريخ الأسطورة. كارين أرمستونغ. ترجمة: وجيه قانصو. الدّار العربيّة للعلوم ناشرون. بيروت. لبنان. ط١. ٢٠٠٨. ص٨.